

شعر

النعاس وقصائد أخرى

عادل محمود

طريق

في القاموس : دُرْب : طريق، رَدْب : طريق مسدود
إلى وليد خزندار

— ١ —

إنني،
مثلما تعرفُ القبرة، كيف توازي، بجناحيها
خطوطَ الهواء،
لكي تبقى آمنة، وتتقي انكسار أغنية ...
إنني
أعرفُ هذا الطريق إليك:
جبلٌ هنا
واد هناك
وماً بينهما غابةٌ من الشجر الذي رافق خدَّ الطفولة ...
الطفولة الأولى.
أعرفُ، فيما يدقني التوجُّسُ : كم ينقصُ من رثتي
كلما اضطربت. كم سيجارةٌ أحتاجُ كي أهدئَ ما سوفَ
يبدو أنه الحبُّ
أعرفُ البابَ المواربَ، نصفَ إغماضك عني

أعرف هذا الطريق كله ... التفاصيل كلها ...
لكنني ...
اليوم، متكئاً، كبوذي فقير، على طعنتي ...
أضلُّ طريقِي إليك.
.....

- ٢ -

كنتَ تدير الرأسَ إلى مخدّته
والكفَّ تحت هذا الفم المليء كلاماً غامضاً.
كنتَ تحمي، في احتمالِ حضورك،
نافذةً وسرباً من يمام.
كنتَ، حينَ عودتني أنك في الهواء الكريم أمامي، تغيّبُ قليلاً
فألمسُ، مثل أعمى، حجمَ فراغك حيثُ كنتَ في مساءات بعيدة،
تقولُ كلاماً ... ترسمُ في الطريق الطويل شجرَ الرحلة. ظلالَ خبزنا
وخميرنا وملحننا، فيما الطريقُ المستقيمُ يستدير إلى آخر مجهوله ... فتختفي عنّا
لكنني، الآن،
نافضاً يدي اليمنى من سلام قديم، تناهضَ عالياً حتى اختفى ...
لا أملك ما يدعو إلى اليأس، غُير يأسٍ من حطام الطريق.

الغائب

مَنْ ذا الذي كلما كسرتَ أقلاماً
وأنتَ تكتبه،
أشرتَ إليه ...
فيغدو غامضاً
فنمذُ أيدينا إليه
نحدده اتجاهاً،
ثم نقولُ: أخيراً سوف نعرفه،
فنعرفه
مَنْ فرطَ التشابهِ بينَ حزنِ غروبهِ

وبين هذا الحطام!

مَنْ ذا الذي يلمّ أشلاءَ الزهور، حين اختلطَ الرحيقُ
بالمَرِّ من الكلمات، وأنت - مغادراً - ترنُّ في الصمت،
يرنُّ الصمتُ فينا جميعاً .. آسفينَ عليك. تركتُ فراغاً،
فراغاً واضحاً، بين الهواءِ الضروريِّ لعصفور، وبين رحلته،
وبين إشكالِ البدايةِ والأمام!

من ذا الذي يحسدنا بَعْدَكَ على صيغةِ الحبِّ، على سور
عزلة المنفيِّ، على تأخِّي كلِّ أضدادِ الحياة. على خلقِ النارِ
من لهب؟ من ذا يصوغُ بَعْدَكَ لؤلؤاً من عدم ...
كأنك،

حينَ تروخُ من هذه الدنيا،
قد أخذت، في يديك،
فيما أخذت ...
كلَّ أروقةِ الكلام!

مَنْ ذا الذي يقول: عُذ.
مدركاً أنك لا تعودُ من تلقاءِ يأسك،
شاهداً على انطباقِ السماءِ على الأرض، باباً خلف باب
خلف باب ... فيها زهُوك يشعُّ، وهو الدليلُ على أقصى
الغياب، وليسَ الدليلَ على حضورك، ذات يومٍ، غماماً
أو على شكلِ غمام!

غيب إذن ...
أيهذا الذي سوفَ نذكره، كلما على كرسيه، رفَّ الغبارُ
حزيباً على غبارِ قديم ...
أيهذا الذي سوفَ نذكره كلما كانَ الحطامُ الذي يدلُّ عليه،
في زهرِ المكانِ ... دليلاً على مجدِ الحطام!

النعاس

« الحب يعيدنا أربياء »

حينَ فاجأَ الرملُ قديمك، بما فيه من ذاكرةِ الملحِ والشمسِ.. ابتسمتِ للشمعةِ التي انطفأت، منذَ شمسٍ صغيرةٍ فيك.

لم تكوني على مقربةٍ من العنقِ الذي يوازيك في الرحلة، أمام شيءٍ يهاجسه، منذَ أقمارٍ عديدةٍ فيه.

حينَ مدَّ إلى الزرقةِ لسانه الفضيَّ، أفاضَ حمامه، وأطلقَ نوارسه الحائرات، متجاهلاً كعاشقٍ خائبٍ حَبَرَ انتظارة.. أيُّ اليمامِ يمامُ البريد؟!

غداً، ذاتُ غلطة، ستكونين فيه... في قامته مثل أبرة النحل في عسل جفثت الشمس، أو يكون في يديك الحَص الذي كان أصدافاً، قبل أن يخرجَ مندفعاً إلى المجهول، من البحر. قد أتى طائِعاً للتلامس في الزوايا الرخوة، ممعناً في ذكورة الصخر، ملائماً ما ينبغي من اتجاه يديه لكي تنطوي، هادئة، على صدره أنثى الأغاني.

قد أتى في ذاكرةِ المجيءِ الحرِّ للمنتظرين أيَّ شيء.. فمهلاً: قلبه معلقٌ كسرطان البحر على منقار، ويمئه ماءً. يداؤه راکعتان في الرمل، كالطيور التي تَعَبت في مواسم الهجرة من عبور البحر.. وهو الآن في استراحة الصامت الغرِّ، في نقاهة من بريد يديته! وقوسه عكازة لمنهك فيه. ربما يغفو بعد جرعة السم على الشاطئ! ربما يصحو في منازل ارتبكت فيها خطأً إلى مصدر الغليان في الكون! قد يتفادى ارتطامه العبثي بالأشياء التي ألفت ما حوله من قصب حزين، أو يتفادى ما في الممر من حبق النوم الطويل العسير.

ربما يكون في وجهه، أخيراً، هدوءٌ أخير.

[يائساً، أو حزيناً.. راجياً أو مريحاً]

لكنه، مطيلاً رواق جريمته، فائزاً بالإياب إلى مطلق رحمته، واصلاً إلى تلامس فقراته مع الأرض.. ينعش مرةً أخرى.

تنعس فيه البسالة الأخيرة

رماً تبغه

نومه الأبدية في مرايا غرفته.

مكانٌ قسوته وشعائره وحدته...

منمنمائه على طاولة، ما انفك يزينا بهائه، لكي تقول جيداً، كيف يصير نومه أبيض

أزرق، ظللاً كما في الغموض الجميل.

فر بما يصير نومه نعاساً جليل!!

النجوم...

« يُقال أنّ مَنْ يَعُدُّ النجوم
يُبتلى بالثآليل »

النجوم

وهي تشبهُ الأيامَ التي كانت سعيدةً
ذاتَ يومٍ،
والسماءَ التي حفظتْ تواريحَ السعاداتِ
مضيئةً وواضحةً.
والشر...

البشرَ، وهم يصعدون واحداً تلو آخر
إلى السماءِ غالباً.

النجومُ التي تمد جناحها إلى روحٍ جميلةٍ ما على الأرضِ،
لتلمسَ خدّها الباكي
والروحَ الجميلةِ،
وهي تغدو في السماء...
نجمةً بين النجوم.

النجومُ التي بلا عود تغطينا على أسطحِ الأعمارِ
في كروم العنب...

النجوم... النجوم
ها نحن، في مقتبل اليأسِ،
نخطئُ، مرةً أخرى،
في عدّها...

فتغزو، مرةً أخرى، أصابعنا
ثآليلُ ناعمةً

من الماضي البعيد!